

الأدباء قبل أن نعتهم زعماء ، فما ارتفعوا إلا بالفكر المشرق
والبيان الجليل

وحكاية ذلك الأسوار واقتحام الميادين وانتزاع النصر محتاج
إلى شرح :

فهل من الحق أن الأدب لا يدرك أعواراً ولا يفتح ميادين ؟
إن الأدب يقضى عمره في جهاد ونضال وعراك مع الدنيا
والناس ، ومع الأوهام والأباطيل والأضاليل ، وما شرق
مشرق أو غرب مغرب في دعوة وطنية أو اجتماعية إلا على
هدى من وحى الأدب ؛ ولا استبسل جبان ، أو استقتل شجاع ،
إلا بتحريض من عبارة فاه بها شاعر أو كاتب أو خطيب

في أعقاب الحرب الماضية ظهر كتاب فرنسي اسمه :
La Barbarie All وهو كتاب أقيم على أساس القول بأن
الوحشية الألمانية ترجع إلى إيمانهم من شعراء الألمان ومفكرهم
في القرن التاسع عشر ، وأن السيوف تتلنى الوحي عن الأقلام
في تلك البلاد

وقبل هذه القولة الفرنسية في تحليل الوحشية الألمانية ، قال
أسلافنا منذ أزمان طوال : إن أيناك من شر عمر بن أبي ربيعة
نقلت قلب هرون الرشيد من مكان إلى مكان ، فصنع بالبرامكة
مادونه التاريخ بإسهاب

وإلى الأدب العربي يرجع الفضل في تأريث البطولة العربية ،
وكذلك حفظ جميع الآداب في جميع الشعوب

حين تراور الرؤساء من الإنجليز والأمريكان بعد انتصار الحلفاء
في الحرب الماضية لم يجدوا عبارة تنصح عن الألفة بين الأمتين
أفضل من العبارة التي تقول بأن لغة شكسبير هي الرابطة الوثيقة
بين الإنجليز والأمريكان

فهل سمعتم أن شكسبير ذلك أسواراً واقتحم ميادين ؟
ومنذ أسبوع نقلت البرقيات أن الميوس هيريو ردّ وسام
« اللجيون دونير » إلى المشير بيتان (١) — وكان تلقاه من
كليمنصو العظيم — لأن حكومة فيشي منحت هذا الوسام
لضابطين يحاربان في صفوف الألمان ، فممن تلقى هيريو هذا
الوحي الرائع ، الوحي الذي يأبى على الضمير الفرنسي أن يستبقى
وساماً يهدى إلى من يحارب في صفوف الأعداء ، ولو أصبحوا
بحكم الضرورة حلفاء ؟

(١) المشير باللغة العربية هو المارشال باللغة الفرنسية

الحديث ذو شجون

للدكتور زكي مبارك

مكثاة الأدب في الجهاد — أدب الملائكة — نعمة سودانية

مكثاة الأدب في الجهاد

اقترح أحد النواب المحترمين إحياء ذكرى « شوق »
بإقامة تمثال له في أحد شوارع القاهرة ، وتلك النغمة لطيفة
تدل على قيمة الشعر في أنفس بعض النواب

ولكن أديباً فاضلاً تعقب هذا الاقتراح في جريدة (الدستور)
فقال : يجب أولاً إقامة تمثال لمحمد فريد ، وتمثال لمحمد عبده ،
وتمثال لقاسم أمين ، قبل أن يقام تمثال لأحمد شوق أو حافظ إبراهيم
ولا بأس بهذا الكلام ، ولكن الأدب الفاضل عليه
فقال : نحن في عصر السيادة فيه للشجاعة والبأس ، والمعبدة
فيه للبطولة والأبطال ، لا للفن والجمال ، وكل مقتحم ميداناً ،
وداك سوراً ، ومنتزع نصراً ، مقدم على من يجلس فوق رابية
آمنة ، يرسل من قيثارته ألحاناً مشجية

ومعنى هذا التحليل أن أمثال محمد عبده ومحمد فريد كانوا
جماعة من المجاهدين ، وأن أمثال أحمد شوق وحافظ إبراهيم
كانوا جماعة من المننيين !!

ومن يعيش في مصر ير العجب ، وإلا فكيف يجوز القول بأن
صورة الشاعر هي صورة « من يجلس فوق رابية آمنة ، يرسل من
قيثارته ألحاناً مشجية » ؟ وكيف يجوز القول بأن الشعراء ليسوا
إلا جماعة يسبحون للفن والجمال ، ولا صلة لهم بالبطولة والأبطال ؟
إن هذا الناقد لا يعرف كيف يحيا الشعراء ، ولا يفهم من
الشعر إلا أنه غناء ، والأدب عنده متعة ذوقية يلهو بها الفارغون
من أهل العبث والمجون

فتى يعرف أهل مصر أن حامل القلم هو الوطني الأول ،
والمجاهد الأول ، وأن معاني البطولة تمتلج في صدره قبل
أن تمتلج في صدور القادة والزعماء ؟

وما أساس البطولة الحقيقية عند أمثال : محمد فريد ومحمد عبده
وقاسم أمين ؟

أساسها الفكر والبيان ، ويجب حتماً أن نضيف هؤلاء إلى

أدب المعاش

لا جدال في أن الأدب العربي الحديث قد سما سموًا عظيمًا في كثير من الفنون ، ولكنى مع ذلك أراه تخلف : يبيح التخلف في دعوة الناس إلى تدبير المعاش ، وأنا أقترح أن يكون عندنا أدب يسمى « أدب المعاش » وهو الأدب الذي يعلم الناس كيف يقتصدون ، وكيف يدخرون ، وكيف يواجهون مطالب الحياة في الشباب والشيب ، بمحبوب سليمة من مرض الأفلاس ، فإني أرى الرجال غير الفقر ، أعاذنا الله وأعاذ جميع الأحرار من رؤية وجهه البغيض

ولتوضيح هذا النقص في اتجاهاتنا الأدبية أسوق الفكاهتين الآتيتين : لقيني الشاعر حافظ إبراهيم يوماً فقال :

— هل رأيت ما صنع شوقي ؟

— وما ذا صنع شوقي ؟

— نظم قصيدة في « بنك مصر » مع أنه لو اختلف مع هذا البنك على مليم واحد لساقه إلى ساحة القضاء

— ومعنى هذا أنك لا ترى أن قال في « البنوك » قصائد ؟

— القصائد لا قال إلا في الأزهار والرياحين

ولقيني الشاعر عباس العقاد يوماً فقال :

— قد نفيناك عن فردوس الأدب

— وما سبب هذا النفي ، يا حضرة الأستاذ ؟

— لأنك بنيت بيتاً في مصر الجديدة ، والأدب لا يعرف

مثل هذا البناء

وقد اعتذرت للأستاذ العقاد ببارة لطيفة ، عبارة تقول بأن

شهرتي بالأدب هددت سمعتي المالية ، فكان من واجبي أن أبنى

بيتاً ولو بالتقسيم ، لتحسن سمعتي في سنتري

والحق أن أدباءنا قد انصرفوا عن تعليم أنفسهم وتعليم قرائهم

فكرة المعاش ، ولو شئت لقلت إنهم يتباهون بالتبديد لما يملكون .

وهذا خطر يجب التحذير من عواقبه السوء ، وأنا أنبه نفسي

وأنبه تلاميذي وقرائي ، فلا تسمع ولا تسمعوا ، ولعل فيهم من يبي

كلامي بأكثر مما أعي كلامي

لا يباب على الأديب أن يقص بعض وقائمه الفرامية ، فند

عهد امرئ القيس إلى اليوم والشمراء يتباهون بحوادث الضم

والعتاق والوصال ، والأمر كذلك عند شمراء الأمم الأجنبية ،

ولسكن يباب على الأديب أن يقص بعض مسالكه في تدبير

هذه الثقافة أدبية لا سياسية ، والأدب يوحى معاني تنفر منها السياسة ، بحيث يجوز الحكم بأن الأدباء أشجع من السياسيين ، وما مدح سعد زغلول بأفضل من النعش على أنه كان خطيباً وطنياً لا سياسياً ، كما قال الأستاذ كامل بك سليم

الثقافة المسيو هريو الثقافة أديب ، وكان هريو في مطلع حياته أستاذ الأدب الفرنسي بجامعة ليون ، وكان يباب عليه الإشراف في شرح أصول النزك والتشبيب ، فلم يكن يرتاد محاضراته بجامعة ليون غير عرائس ليون

ثم تحولت المواطف الوجدانية عند المسيو هريو إلى عواطف وطنية ، وهل كانت خطبه في مجلس النواب الفرنسي إلا روائع من الأدب المضمخ بمبير الروح ؟

ولم يقف الأدب بالمسيو هريو عند الوطنية المحلية ، بل سماه إلى رعاية اللغة الفرنسية في البلاد الأجنبية ، قرأس جمعية المسيو لايبك رياسة حقيقية لا صورية ، وأمدّها بما استطاع من الوقت والمال عتب عليه المسيو بينار في المؤتمر الذي عُقد في يولييه سنة ١٩٣٣ خلف الوعد بحضور افتتاح اليليسيه فرانسيه في حلب ، فاعتذر بأسلوب لن أنسى وقعه في نفسي ، اعتذر بأنه يبيت في القطار ثلاث ليال من كل أسبوع ، ثم أعلن استعداداه لدفع النفقات التي توجهها الدعوة لنشر اللغة الفرنسية في البلاد الأجنبية فهل تصدر هذه الأريحية إلا عن أديب ؟

وفي ذلك اليوم دعوته لزيارة القاهرة فقال في حماسة : سنلتقي هنالك يا صديقي

وقد برّ بالوعد فخر لافتتاح اليليسيه فرانسيه بمصر الجديدة في سنة ١٩٣٨ ، ولكنى ما رأيته ولا رأي ، فقد كنت في بندا ، عليها أطيب التحيات وخلاصة القول أن الأدب عماد الوطنية ، ولا قيمة لوطن ليس فيه أدباء

وإذا تخذلق متحذلق فادعي أن الأدباء لا يحمنون غير التفريد فوق أفنان الجمال ، أجنبنا قائلين بمزة وخيلاء :

إن الجمال هو أعظم نعم الله في هذا الوجود ، ولا يعبب التفتي بالجمال غير مرصني الأذواق والقلوب ... الأم العظيمة هي التي تتفتي بالجمال ، كما يصنع الإنجليز والألسان ، وكما صنع العرب في شباب الزمان ... فمن بدا له أن يفض من شمرائنا لأنهم يتحدنون عن الجمال ، فليبادر باستشارة أحد الأطباء

قصيدة خفيفة الروح ، حنّ فيها إلى أبياته بمصر فقال :

ولو كان لي عمّ ما في غدٍ
عدتني عن طيب ذاك الثواء
فودّعنيها أمس لا عن قِلي
إلى بلدٍ عشت فيه غريباً
أقيم بها من صدور المطي
لملى أصيب بتلك البطاح
فله كم جئت الحادثات
رعى الله مصر فكم للأدب
وأجيب بأيامها الدهابات
قضينا بها غفلات الشباب
تولّت سراعاً فياليتهما
ويا قبة الخير لا تبعدى
ويا برق زرها بوطف الغمام
وإن تبخلى إن لي مقلة
بني مصر حياً كم ذو الجلال
وأسدي بإحسانه منماً
بكم غدت اليوم أم اللغات
تحلّم بمصر وبالشرقين
أجل وشأتم بسحر البيان
بيان هو البدر في تمه
وكالورد يعبث مطولة
بلونا الكرام فكأنوا البناء
فأراى قراء « الرسالة » في هذا الكلام النفيس ؟ ما رأيهم
في شاعر سوداني يحنّ إلى مصر هذا الحنين ؟ وما جزاؤه على
هذا التلطف النبيل ؟

نحن لا نملك الجزاء على مثل هذا الوداد ، فهو فوق الجزاء ،
ويكفي أن نقول إنه شاعر من السودان ، السودان المصري ،
أعزّه الله ورعاه وحمّاه من جميع الأسواء

وداد مصر للسودان وداد صحيح ، فليعرف السودانيون أننا
لا نقبل أن يكونوا أوفى منا بأى حال ، وسنعارض هذه القصيدة
بقصائد ، وسنزيهم أن مصر تجزيهم صدقاً بصدق ، وإخلاصاً بإخلاص

(١) الريح والصفابة مادن لبادة السكايش بالسودان

المعاش وما وقع من ذلك لم يقابل بغير السخرية والاستهزاء
وأخرج على هذا التقليد فأقول : إني جربت منذ أعوام على
الادخار في حدود الاعتدال ، فلا أحرم نفسي ولا أحرم أبنائي
نعمة العيش المقبول ، ولكني لا أسمح لنفسي ولا لأبنائي بتبديد
ما يسوق الله من الرزق الحلال

وعند اشتغالي بالتدريس كنت أسأل تلاميذي عما يدّخرون
ولم يفتني أن ألقى درساً في الادخار على تلاميذي في بغداد ، راجياً
أن يلقوه على تلاميذهم في جميع أرجاء العراق

ومنتى اليوم لا تسع لأمثال هذه الدروس ، ومع ذلك يغلبني
حب الخير فأسأل المدرسين الذين أنشرف بتوجيههم إلى المناهج
المصححة في التدريس ، أسألمهم عما يدّخرون ، لأطمئن إلى
صلاحيتهم لهمة التعليم ؛ فالعلم الحق في نظري هو الذي يروض نفسه
ويروض تلاميذه على تدبير المعاش . ولا يمكن لمدرس يبدد ممرته
في الأسبوع الأول من الشهر أن يجد عقله في الباقي من الأسابيع
وتدبير المال في الحدود المعقولة يشهد بالقدرة على ضبط
النفس ، وضبط النفس هو أوثق صور الأخلاق ، وما يجوز
لبذر أن يتوهم أنه يصلح لشيء من جلائل الأعمال

أكتب هذا وأنا أعرف أن في بني آدم من يطيب له أن
يتهمى بالشح والبخل ، لأنهم ألغوا وصف المدخرين بالشح والبخل ؛
ولأن الشعر القديم صور لهم التبذير بصورة السخاء مع أن أكثر
المدائح كانت تعائم أريد بها انتهاب ما يملك الخلفاء والملوك
ومهما نهيتكم عن الإسراف فلن أنهاكم عن البر بالفقراء
والساكنين . ولى هنا غاية تجارية : فقد عرفت بالتجربة أن الله
يعوض ما تنفقه على العوزين أضغافاً مضاعفة ، ومن الواجب
أن نستغل كرم الله أجل استغلال في حدود ما نطيق

وأنا بعد هذا أرجو من يؤلفون كتب الطائفة لتلاميذ
المدارس أن يكثرُوا من الحث على الادخار ، ليساعدوا على إنشاء
جيل جديد ، جيل متمسك لا يتباهى أبناؤه بالسرف والتبديد ،
وإنما يتباهون بالبر والإفضال

نعم سودانية

كان من توفيق الله أن تلتفت إلى الأدب في السودان بعض
الائتفات ، فيه أتيت فرصة للتعرف إلى ما هنالك من روائع
لو نُشرت لبهرت شعراء مصر والشام والعراق
أقول هذا وأما قصيدة للشاعر محمد سميد العباسي ،